

خالد ناصري-جامعة محمد بوضياف المسيلة-الجزائر

التعدد اللغوي وأثره الجمالي في رواية الشخص الآخر لحفناوي زاغر

ملخص

تبحث الرواية المغاربية عموما عن سبل لمسيرة التغيرات التي من شأنها أن تبعث بها وتثريها، فهي أفق مفتوح لكل التغيرات التي من شأنها أن تثريها وتغدي مضامينها، إذ أنها تؤسس لعالم يجمع فيه كل الرؤى على اختلاف ايدولوجياتها، فهي الوعاء الذي بإمكانه أن يحاك الواقع كما هو بتقلباته، بأبعاده ومضامينه اللغوية المتعددة. ورواية الشخص الآخر، صنف روائي يجمع جملة من التشكلات اللغوية التي حاولنا من خلالها الوقوف عليها في هذا المقال.

الكلمات المفتاحية

التعدد اللغوي - الأثر الجمالي - رواية - الشخص الآخر

مقدمة

لغة في الرواية نظامها العلاماتي الخاص بها، يميزها هذا النظام عن غيرها من باقي الأجناس الأدبية الأخرى مثل: المسرح، المقال، الشعر، الخطبة.. إلخ، والرواية المغاربية مثل نظيراتها في الغرب والشرق تكاد تكون قد اكتسحت جميع مناحي الحياة، وهذا من نلمسه في تلك الحيوية الكبيرة في الإنتاج الروائي في المغرب، وهي كما عبر عنها عبد المالك مرتاض: " هذا العالم الجميل المكتمل فنيا في بناء لغتها وشخصياتها وأزمنتها وأحيازها وما يعثور كل ذلك من خصيب الخيال" (01).

ولأن الرواية نوع أدبي، فإن اللغة تعد من عناصرها الأساسية لأنها العنصر الذي يظهر ويتشكل من خلاله جميع العناصر الأخرى التي يتكون منها العمل الروائي، " فالرواية صياغة بنائية مميزة والخطاب الروائي لا يمكن أن يتحدد بالحكاية فحسب، بل بما يتضمن من لغة توحى بأكثر من الحكاية وأبعد من

زمانها ومكانها ومن أحداثها وشخصياتها، والرواية ليست لها لبنات أخرى تقيم منها غير عالمها غير عالم الكلمات، ونحن لا يمكن أن نقول شيئاً مفيداً حول رواية ما، ما لم نهتم بالطريقة التي صنعت بها" (02).

لهذا كان التركيز على اللغة في العمل الروائي أمر ضروري، لأنها حلقة التواصل والرابط الذي يجمع بين القارئ والمؤلف، فهي القالب الذي يحمل نوايا المؤلف وأفكاره، وما يريد توصيله سواء بطريقة مباشرة أم غير مباشرة، وهي بذلك مكون خطابي إنساني إلى جانب المكونات الأخرى للخطاب الروائي من بنية زمانية ومكانية، فضاء وشخصيات... " فباللغة تتطوق الشخصيات وتتكشف الأحداث وتتضح البيئة، ويتعرف القارئ على طبيعة التجربة التي يعبر عنها الكاتب" (03).

الرواية والتعدد اللغوي

تعد اللغة العصب أو العمود اللغوي الذي تقوم عليه الرواية، فهي الوعاء الحامل لأفكار الروائي والاداة المثلى له، " فاللغة هي أساس الجمال في العمل الإبداعي من حيث هو، ومن ذلك الرواية التي ينهض تشكيلا على اللغة بعد أن فقدت الشخصية *personnage* كثيرا من الامتيازات الفنية التي كانت تتمتع بها طوال القرن التاسع عشر وطول النصف الأول من القرن العشرين أيضا... إنه لم يبق شيء للرواية غير لغتها، وأناقته نسيجها" (04).

ويعد " أبو عثمان الجاحظ أول من عني بالحديث عن مستويات اللغة ومراعاة درجة المتكلم الثقافية والاجتماعية، وألفينا ذلك يكثر لدى الأعراب البادين الذين كانوا يؤثرون التعر والاعتراب بحكم اعرابيتهم، ولدى البلغاء الذين كانوا يميلون إلى النسج الاسلوبي العالي التركيب الذي يبهر ويسحر لدى النحاة وللغويين الذين... لم يكونوا قادرين على التخلي عن مستواهم اللغوي العالي والتدني به إلى مستوى السوق من الناس" (05).

لقد نبه باختين إلى أن تعدد المواضيع والمنطلقات الأيديولوجية من أهم مدرجات التعدد اللغوي يقول: " يمكن ان ندخل إلى الرواية ❖ اللغات ❖ والمنظورات الادبية والأيديولوجية الممتدة - الأشكال - لغات الأجناس التعبيرية، والمهن، والفئات الاجتماعية (لغة الرجل النبيل، والمزارع، والبائع، والفلاح) كما يمكن أن

ندخل اللغات الموجهة، المعتادة (الثرثرة، هذر الحفلات، لهجة الخدم) وهكذا دواليك" (06).

هذه الظاهرة نلمسها في الرواية العربية "فضاهرة التعدد اللغوي في الرواية العربية موجودة منذ بدايات هذا القرن، ولكن ما يلفت النظر هو بروزها وكثافتها النسبية منذ السبعينات مقرونة بسياق نقدي يسعى إلى استيعاب وتثمين ظاهرة التعدد اللغوي في الرواية" (07).

تقديم رواية الشخص الآخر لحنفاوي زاغر

قسمت هذه الرواية إلى قسمين، القسم الأول منها عنوانه: الحاضر الغائب والقسم الثاني منها عنوانه: الروح العائد.

تدور رحال هذه الرواية في قرية المرابطين، بطلها شاب اسمه سعيد ابن ثري أثرياء القرية، بين سعيد ووالده الداجي تنافر وتناطح، فالشاب ميال إلى الحرية له رغبة ملحة في الإطاحة بالأعراف والتقاليد بينما والده متسلط لا هم له إلا جمع المال مهما كانت الوسيلة للوصول إليه، شخصية سعيد في هذه الرواية شخصية تميل للعزلة والوحدة، زاهد في الحياة، كثيرا ما يختلي بنفسه في شعاب الوادي أو فوق الهضاب على سفوح الروابي، اتهمه أهل قريته بالجنون.

تمر الأيام على سعيد وعائلته في قرية المرابطين إلى أن يفقد سعيد وعيه لفترة طويلة من الزمن، لم يجد حكماء القرية ولا سحرتها تفسيراً لحالته تلك.

في الجانب الآخر من البحر، أسرة من أربعة أفراد تتزعمهم "إيلين" تدعي أن هناك روحاً قد خاطبتها تشدها إليها شداً، فتهم "إيلين" بالقيام برحلة للبحث عن هذه القرية التي تطلبها تلك الروح المناجية والتي تنتظر من يفك أسرها ويبعثها من جديد، فلا هي فارقت الحياة فاستراحت ولا أبهجت من حولها فأراحت، تدعي إيلين أم "إيزا" أنها مختصة بعلم الأرواح وأنها هي التي ستتقن سعيداً مما آل إليه ومما عجز عنه الأطباء والحكماء. وصلت هذه الأسرة قرية المرابطين ومكثت فيها زمناً نالت فيه من كرم الضيافة في بيت "الداجي" لتستحضر "إيلين" من طقوسها ما يمكنه أن يعيد لسعيد عافيته. غادرت العائلة الأجنبية قرية المرابطين وقد وعدت الداجي بان سعيداً سيشفى، وقد بقي على حالته تلك مدة من الزمن ليقرر السيد

الداجي بعدها أنه إن لم يشفى خلال أسبوع فإنه سيدفنه حيا كان أم ميتا، وبعد أيام قليلة تعود الروح للشباب سعيد ولا يزال بأفكار الدفاع عن الطفولة ونصرة الضعفاء وكذا الثورة على الأعراف والتقاليد البالية، ذات مرة حدث ان صادف شيئا يضرب طفلا فانهاه عليه سعيد بالضرب المبرح أفقد الشيخ وعيه، ليتوارى عن القرية بعد صنيعه هذا، ويذهب لبيت أم قمر ذات السمعة السيئة، الممارسة للزينة، وفي ذهابه إليها ليطلب الامن والطعام كانت له نية أخرى هي ان يتقدم طالبا ابنتها قمر للزواج، ليقترن سعيد بها مواصلا دعوته إلى الإصلاح ناصحا الشباب منتصرا للحق ناصرا للطفولة. حدث ذات ليلة أن جاء سعيد إلى منزله فإذا بشخصين يفران من منزله فلا هما لحق بهما ولا قرينته وجدها، لينعزل بعدها في الجبل متواريا عن الناس، مستترا بنفسه متخفيا من الفضيحة، تمر الأيام فإذا به ذات مرة يجد شخصا يجري وراء طفل قد سرق عنقودا من العنب ليعطيه لأمه المريضة، فيتصدى له سعيد ويقتله، ليبعث أهل القرية عن سعيد بعدها طالبين الثأر، فيحدث صراع بين أنصار سعيد ابن الداجي وانصار مالك ذلك الرجل المقتول، فكانت الغلبة أخيرا لأنصار سعيد وقد كثرت الأقاويل حوله بأنهم رأوه يقذف الناس بعضهم ببعض وآخر يروي أنه كان يتمتم فتتطاير الصخور فتضرب من يطلبون سعيدا، هذا الشخص الآخر.

فاتحة الرواية

استهلت الرواية بالفاتحة الآتية:

سعيد بن ثري القرية، شاب نحيل الجسم لا يشبه أحدا...ميالا للعزلة زاهدا في الحياة، يجلس وحيدا في شعاب الوادي... يتذكر، يفكر يتخيل، يحلم، يتوهم... قيل أن فتاة من الجن رقت له، ورثت لحاله، فكانت تأخذه إليها في الاماكن الموحشة المهجورة، تعلمه السحر والهوس والجنون...لم يكن سلوكه عاديا، أو متشابها إثر كل صحوة، لكن هناك عنصر وحيد وثابت، أو عناصر مشتركة متشابهة تتكرر في أغلب الأحيان: الثورة.. التمرد، التجاهر بالعصيان، الرغبة في الإطاحة بالتقاليد والأعراف.."(08).

إن الذي يلاحظ على تلك الفاتحة الاستهلالية أنها جامعة وشاملة لكل أحداث الرواية، فالوقوف عندها يكاد يغنيك عن تتبع باقي أحداث الرواية، فهي اختزال لما

هو آت من أحداث ودعامة غير مباشرة لما يحتويه العنوان، " على أن الفاتحة وإن كانت مستقلة عن النص الروائي وأحداثه وصراع شخوصه فإنها دلالية مرتبطة به، يسعى من خلالها الكاتب إلى إقامة تواصل مباشر مع القارئ، يحدد فيها القنوات التي سيمرر بها حتما نصه الروائي" (09).

عند الوقوف على فاتحة الرواية يحدث اصطدام مباشر بين دلالة العنوان وما اختزلته فاتحة الرواية إلا أن الذي يمكن إضافته هنا أنه لدلالة العنوان والثقافة الشعبية المنتشرة في عالمنا المغربي صلة وثيقة إذ أن الاعتقاد بوجود الأرواح والجن وأنها تسكن البشر لها بعد أيديولوجي راسخ في أذهاننا.

"ثري القرية" فلمنزل "الداجي" نصيب من أحداث الرواية من وصف وسرد، فهو المنزل المضيف وقبلة الزوار، وفيه نشأ سعيد وفيه طارت روحه وفيه عادت. "يتذكر، يفكر، يتخيل، يحلم" وهي صفات لازمة لبطل الرواية سعيد من أول القصة إلى نهايتها.

ما بين الفاتحة ومضمون المتن اتصال وثيق وهي أن الفاتحة اختزال لمضمون المتن، وعدم رضاه عن الحالة التي يعيشها وتعيشها القرية، ورغبته في الثورة على كل تلك الأعراف والتقاليد السلطوية البالية.

التشكلات اللغوية

استندت رواية الشخص الآخر على تعددية لغوية رسمت معالم خطابات متعددة " ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحاجات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حال من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات" (10).

إن لغة الخطاب الروائي البارزة هي اللغة العربية الفصحى في أبهى حللها، وخصائصها الفنية، وإلى جانب اللغة العربية الفصحى التي كانت حاضرة بقوة أخذت اللغة الدينية نصيبها من الحضور متمثلة في آيات القرآن الكريم وبعض من أحاديث النبي صل الله عليه وسلم، هذا إلى جانب حضور محتشم للغة العامية وما حوته من أمثال شعبية، ولغة أجنبية للتعبير عن أنواع من العلوم.

1. الاقتباس القرآني

تضمنت رواية الشخص الآخر فضاء لغويا دينيا تمثل في مجموعة من الاقتباسات القرآنية الاستشهادية وقد استعملت كوسائل إقناعية بغية التأثير في الآخر. من الاقتباسات القرآنية الحرفية ما ورد من آيات الذكر الحكيم ﴿أسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾، (11) ص. 27، وقد جاء الاستشهاد بهذه الآية في قالب حوار بين الداجي وأفراد أسرته بعد سوء حالة سعيد.

﴿وفي أموالهم حق معلوم﴾، (12) ص. 137، وقد استلهمها سعيد بعد تفكير عميق في كيفية دعوة والده لجادة الصواب.

ما يلاحظ على الرواية عموما، هو ذلك البعد الاعتقادي والإيمان بالقضاء والقدر، خاصة وأن قرية المرابطين هذه لا شيء يجذب السياح إليها عدا تلك الأضرحة المنشرة على ربوع القرية والتي هي نزل للمقبرين من الأولياء الصالحين، فالاستشهاد بالقران الكريم لا يكاد يطول، فهو استحضار للحظة التي تتطلب الاستشهاد ويمكن إضافة البعد الديني هنا في عبارات متداولة بكثرة مستوحات من ثقافتنا الدينية ووليدة البيئة التي نحياها من بين هذه العبارات "استغفر الله" "سبحان الله" "لا حول ولا قوة إلا بالله" "الحمد لله" "زينة الحياة ... المال والبنون..."

2. الاقتباسات النبوية

للاقتباسات النبوية نصيب في رواية الشخص الآخر (حبب إلي من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء، وجعلت قره عيني في الصلاة) (13)، ص. 100.

أيضا: (اياكم وخضراء الدمن) ولما قيل وما خضراء الدمن (قال المرأة الحسنة في المنبت السوء) (14) ص. 176.

جاء هنا الاستشهاد " بتصرف " في محاولة لرد سعيد وإقناعه بالعدول عن رأيه في الزواج ب "قمر" بنت المرأة الباغية، رغم ذلك إلا أنه أصر وتزوجها.

3. اللغة العامية والكلام اليومي المتداول

تميزت الرواية في بنائها السردي العام بنهجها منهج الفصحى وما ورد من العامية والكلام اليومي المتداول إلا ما استلزمته السياقات التي وردت فيه " فصي الكتابة الفنية المعاصرة عموما نوع من تداخل الأجناس الأدبية فيما بينها ينجم غالبا

عن إحساس الكاتب أو ثقته بعجز الجنس الواحد عن استيعاب ما يريد طرحه أو عكسه من تجربته الشعورية أو الإبداعية" (15). ما نورد من الكلام اليومي بعض الشتائم التي كان يطلقها "الداجي" ابن الكلبة (16) ص. 96، "ابن الطحان" (17) ص. 159، "الروندة" (18) ص. 189. وهي نوع من ألعاب الورق، ومما استلزمته السياقات نذكر:

أ- الأمثال الشعبية

إن للأمثال الشعبية وقع خاص في إضفاء الطابع الشعبي على أحداث الرواية ووقائعها، فالأمثال الشعبية "وسيلة من وسائل تحديد أبعاد الشخصية من جهة، ووسيلة لتقديم فكرة مشفوعا بمصداقية نابغة من القيم التي يتمتع بها المثل الشعبي، ذلك أن المثل الشعبي مرتبط لحظة انبثاقه بخبرة حياتية صادقة في تصور من يتعاملون هذه الأمثال في كل مناسبة شبيهة بمناسبة ابتداعها" (19).

في وقوفنا على الأمثال الشعبية في رواية الرجل الآخر لوحظ تداولها بين الشخصيات وانسجامها في الموقع الذي حلت فيه، فهي خادمة للموضوع داعمة له "عش تشوف" (20) ص. 124. استعمل هذا المثل الشعبي الشيخ "الداجي" بعد أن رأى سعيدا وقد عادت إليه الروح وخاصة وأنهم قد نَسُوا من شفائه وعودته إلى الحياة، ودلالة هذا المثل أن الحياة كفيلة بأن ترى فيها العجب العجاب.

"ليس من يرى كمن يسمع" (21)، ص. 136، وهذا المثل يضرب للدلالة عن أن الذي يكون شاهدا رأي العين ليس كمن نقل له الخبر شفاهاً، وقد أطلق هذا المثل سعيد حين عودته من العالم الآخر وعودة الروح إليه، إذ وجده هو من عاين المشهد وعايش ذلك العالم ووقع المشاهدة يختلف عما يروى شفاهاً.

ب- اللغة الأجنبية

ما تم حصره من استعمال اللغة الأجنبية في رواية الشخص الآخر كان ضئيلاً محصوراً في بعض المصطلحات العلمية، منها science psychique (22)، ص. 62. وكذا spiritisme (23)، ص. 64. وكلمة psychique، وهي كلمات استعملتها الأسرة الأجنبية أثناء حلولها على قرية المرابطين.

وما يفسر غياب اللغة الاجنبية هنا رغم اختلاف اللغة بين الأسرة الأجنبية وسكان القرية هو لجوء الراوي إلى شخصية صالح الذي تكفل بعملية الترجمة. تأسيسا على ما سبق فإننا نخلص إلى أن الرواية المعاصرة عموما قد استطاعت أن تقدم لنا رؤية مرنة أزالَت اللثام عما هو تقليدي، وما رواية الشخص الآخر إلا أنموذج من كثير من النماذج الادبية التي شملها هذا الانفتاح في التنوع على الاجناس الادبية الاخرى، ولا ندعي أننا وقفنا على كل التعددات اللغوية إحاطة، وان ما أشرنا إليه هو بالضرورة المتوفر فقط، بل هناك أشكال أخرى تسعها هذه الرواية، وروايات أخرى يحفل بها هذا الشكل الروائي الجديد المتبني لحلقة كبيرة من الأجناس الادبية المتنوعة.

إجمالاً يمكن القول أن:

- رواية الشخص الآخر قائمة على تنوع وتعدد لغوي إذ احتضت فيها الخطاب بكل المستويات اللغوية التي تطمح إليها الرواية المعاصرة.
- صيغت مضامين الرواية بلغة عربية فصيحة سواء على المستوى السردى أم على المستوى الحوارى.
- أن التعدد اللغوي من اقتباسات قرآنية إلى أحاديث نبوية إلى أمثال شعبية وقوالب من العامية وتعددات لغوية أخرى، كل هذه التعددية تعد من سمات الإثراء اللغوي في الرواية.

الهوامش

- (01) عبد المالك مرتاض، بحث في تقنيات السرد، مجلة عالم المعرفة، ص7، عدد 240، 1998.
- (02) ينظر مجلة العلوم الانسانية عدد 21 جوان 2014، ص 51، جامعة منوري قسنطينة.
- (03) عبد الفتاح عثمان، بناء الرواية (دراسة في الرواية المصرية)، ص199، مكتبة الشهاب، القاهرة، 1982.
- (04) عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، ص100، 101، عالم المعرفة، ديسمبر 1998.
- (05) المرجع السابق، ص 101.
- (06) ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، تر محمد براءة، ص81، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، القاهرة 1987.
- (07) محمد براءة، أسئلة الرواية، أسئلة النقد، ص 31، ط1 الدار البيضاء، 1996.
- (08) حنفاوي زاغز، الشخص الآخر، ص 4، دار هومة، 2000، الجزائر.
- (09) ينظر رشيد بن مالك، السيميائية بين النظرية والتطبيق، أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر، ص. 155.
- (10) ينظر عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، مرجع سابق، ص. 101.
- (11) حنفاوي زاغز، الشخص الآخر، ص 4، دار هومة، 2000، الجزائر
- (12) المرجع نفسه، ص. 137.
- (13) المرجع نفسه، ص. 100.
- (14) المرجع نفسه، ص. 176.
- (15) ينظر صلاح صالح، سرديات الرواية العربية المعاصرة، ص. 207، المجلس الأعلى للثقافة، ط3، 2003.
- (16) الشخص الآخر، مرجع سابق، ص. 96.
- (17) المرجع نفسه، ص. 159.
- (18) المرجع نفسه، ص. 18.
- (19) مأمون عبد القادر الصامدي، جمال الغيطاني والتراث (دراسة في اعماله الروائية) ترجمة: ابراهيم السعافين، ص. 203 - 204، 1992.
- (20) الشخص الآخر، مرجع سابق، ص. 124.
- (21) المرجع نفسه، ص. 136.
- (22) الشخص الآخر، مرجع سابق، ص. 62.
- (23) المرجع نفسه، ص. 64.